مقتل

أبي الطيب المتنبي

obeikandl.com

obeikandl.com

ترجمتــه [١]

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجُعفي الكندي الكوفي، من بني جعفر بن سعد العشيرة بن مذحج من كهلان من قحطان من عرب الجنوب اليمنيين.

كانت ولادته في حي بني كندة بالكوفة سنة (٣٠٣هـ)، وقضى في ربوعها سني حياته الأولى، وكان يتردد فيها على الورَّاقين يجمع العلم من أوراقهم.

انتقل إلى الشام سنة (٣٢٠هـ)، وما كاد يصل إلى اللاذقية حتى تورط في قصة النبوة ودخل من أجلها السجن بأمر من عامل الأخشيد، الذي ما لبث أن استتابه وأطلق سراحه بعد أن ذاق المتنبي الأهوال، ورأى الموت رأي العين.

بعد خروجه من السجن هام على وجهه، إلى أن حط عصا الترحال في حضرة بدر بن عمار سنة (٣٢٨هـ).

ثم تنَّقل بين البلدان، مادحاً أمراءها ووجهاءها.

---

(١) الكتب المؤلفة عن حياة المتنبي لا تحصى عدداً، انظر مجموعة منها في رسالة الدكتور عبدالله الجبوري: «أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين».

obeikandl.com

اتصل بعد ذلك بسيف الدولة الحمداني سنة (٣٣٧هـ)، الذي جعله نديماً له في حلب، فمدحه المتنبي بالقصائد الشهيرة التي أبقت ذكره.

إلا أن الحسَّاد سرعان ما أفسدوا علاقته بسيف الدولة، وأوغروا صدره عليه، فاستجاب لأقوالهم وتلوَّن عليه، ولم يثبت معه على حال، فلم يجد المتنبي بعد ذلك إلا الرحيل، وخصوصاً بعد أن رماه أحدهم بدواة أو مفتاح أسال الدماء على وجهه في مجلس سيف الدولة الذي لم ينتصر له، فغضب أبوالطيب وغادر حلب متوجهاً إلى دمشق سنة (٣٤٦هـ).

ثم توجه بعد ذلك إلى مصر بعد أن استدعاه واليها (كافور الأخشيدي)، فقصر مديحه عليه طامعاً في ولاية عنده، إلا أن كافوراً أخذ يماطله قائلاً لمن راجعه في هذا الأمر: «هو ـ أي المتنبي ـ في الفقر وعدم العون سمت نفسه إلى النبوة، فكيف يكون أمره إذا أصاب الولاية؟!»

فلما استيقن المتنبي أن كافوراً لن يحقق له مطالبه أضمر الهرب من أرض مصر بعد أن زوّر قصائد الهجاء المقذع في كافور، وأخذ يرسلها في الآفاق بعد هروبه ذاك.

عاد المتنبي إلى العراق، فدخل الكوفة ـ مسقط رأسه ـ سنة (٣٥١هـ)، ثم انتقل منها إلى بغداد، ثم إلى فارس مادحاً عضد الدولة.

بعدها عاد إلى بغداد، وعندما أصبح على مقربة من (دير العاقول) الذي يبعد عن بغداد مسافة خمسة عشر فرسخاً هجم عليه فاتك الأسدي وقتله ـ كما سيأتي ـ.

أما لقبه بالمتنبي فقد قيل فيه أمور كثيرة: أصحها أنه ادعى النبوة في بداية حياته إلى أن سُجن واستتيب ـ كما سبق، قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن المتنبي: «وقد اشتهر بلفظة تدل على كذبه فيما كان ادعاه من الإفك والبهتان وهي لفظة المتنبي، الدالة على الكذب».

يعد المتنبي من أشعر أهل العربية، وأشهرهم أبياتاً بين الناس، حتى قال عنه الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: «شاعر الزمان»، وقال ـ أيضاً ـ: «بلغ الذروة في النظم، وأربى على المتقدمين، وسار ديوانه في الآفاق».

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في ترجمته في (لسان الميزان): «نظم الشعر حتى بلغ الغاية، إلى أن فاق أهل عصره».

ومن أشعاره التي سارت في الآفاق، قوله[1]:

أعز مكان في الدنا سرج سابح

وخير جليس في الزمان كتاب

(١) من أراد الاطلاع على أبياته الجميلة فعليه برسالة: (من طيبات المتنبي) للأستاذ إبراهيم الألمعي، ورسالة: (المتنبي: حِكَمه وأمثاله) للأستاذ علي رضا.

وقوله:

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وقوله:

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى أم بأمر فيك تجديد

وقوله:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ

فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

وقوله:

لا تعذلِ المشتاق في أشواقه

حتى يكون حشاك في أحشائه

obeikandi.com

وقوله:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله
إذا القول قبل القائلين مقولُ

وقوله:

وإن تفق الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزالِ

وقوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

وقوله:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مفرّداً

وقوله:

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ
فليسعد النطق إن لم تسعد الحالُ

obeikandl.com

وقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قـــدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

وقوله:

بم التـــــعلل لا أهل ولا وطنُ
ولا نـــديم ولا خـــل ولا ســـكـــنُ

وقوله:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً
وحـــسب المنايا أن يكنَّ أمـــانيـــا

تمنيـــتـــهـــا لما تمنيت أن ترى
صديقاً فأعْيَا أو عدواً مداجياً

وقوله:

عـــدوك مـــذمـــوم بكل لســـان
ولو كـان من أعـدائك القـمـرانِ

ولله ســـــر في عـــــلاك وإنما
كلام العِدَى ضرب من الهذيانِ

obeikandl.com

وقوله:

غـريـب من الخـلان في كل بلدة
إذا عظم المطلوب قل المسـاعـد

وقوله:

إني وإن لمت حـاسـدي فـمـا
أنكر أني عـقـوبة لهمُ

وقوله:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني
فـلا أعـاتبـه صـفـحـاً وإهوانا

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
إن النفيس غريب حيثما كانا

وقوله:

سـوى وجع الحـسـاد داو فـإنه
إذا حل في قلب فليس يحـولُ

ولا تطمعن من حاسد في مودة
وإن كنت تبـديهـا له وتنيلُ

وقوله:

لولا المشـقـةُ سـاد الناس كلهمُ
الجـود يفـقـر والإقـدام قـتّـالُ

obeikandl.com

وقوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بدُ

وقوله:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقوله:

أحقُّهم بالسيف مَنْ ضرب الطُّلى
وبالأمن من هانت عليه الشدائد

وقوله:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وقوله:

من اقتضى بسوى الهندي حاجته
أجاب كل سؤال عن هل بلم

وقوله:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن
لما يشق على السادات فعَّالُ

وقوله:

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام

obeikandl.com

وقوله:

ذل من يغبط الذليل بعيش
رب عيش ألذ منه الحمام

وقوله:

يرى الجبناء أن العجز عقل
وتلك خديعة الطبع اللئيم

وقوله:

جود الرجال من الأيدي وجودهمُ
من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وقوله:

ومن العداوة ما ينالك نفعه
ومن الصداقة ما يضر ويؤلمُ

وقوله:

إذا اشتبكت دموع في خدود
تبين من بكى ممن تباكى

وقوله:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصّةٍ كلهم منْ
هُ وإن سر بعضهم أحيانا

obeikandl.com

وقوله:

أمـــا تغلَطُ الأيامُ فِيَّ بأنْ أرَى
بغيضاً تُنائي أو حبيباً تقربُ

وقوله:

أريد من زمني ذا أن يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وقوله:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

وقوله:

جزى الله المسير إليك خيراً
وإن ترك المطايا كـــــالمزاد

وقوله:

يهون علينا أن تُصاب جُسُومنا
وتسلم أعراض لنا وعقول

وقوله:

يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

obeikandl.com

وقوله:

نحن أدرى وقد سألنا بنجد
أطويل طريقنا أم يطول

وكثير من السؤال اشتياق
وكثير من رده تعليل

وقوله:

أروح وقد ختمت على فؤادي
بحبك أن يحل به سواكا

وقوله:

نثرت ثلاث ذوائب من شعرها
في ليلة فأرت ليالي أربعا

واستقبلت بدر السماء بوجهها
فأرتني القمرين في ليل معا

وقوله:

لك يا منازلُ في القلوب منازل
أقفرت أنت وهن منك أواهل

وقوله:

ويحتقر الحساد عن ذكره لهم
كأنهم في الخلق ما خلقوا بعدُ

obeikandl.com

وقوله:

ورفلت في حلل الثناء وإنما
عدم الثناء نهاية الإعدامِ

وقوله:

كأنهم يردون الموت من ظمأ
وينشقون من البارود ريحانا

وقوله:

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربُّه
وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

وقوله:

وإطراق طرف العين ليس بنافع
إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

وقوله:

كأن كل سؤال في مسامعه
قميص يوسف في أجفان يعقوب

وقوله:

كَفَلَ الثناءُ له بردٍّ حياتِه
لمَّا أنطوى فكأنهُ منشورُ

وقوله:

كثير سهاد العين من غير علة
يؤرقه فيما يشرفه الفكر

obeikandl.com

وقوله:

وما كنت ممن يدخل الحب قلبه
ولكنّ من يبصر جفونك يعشق

وقوله:

ألذ من الصهباء بالماء ذِكْرُهُ
وأحسن من يُسْرٍ تلقَّاه مُعدِمُ

وقوله:

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى
وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

وقوله:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته
فسرَّهُم وأتيناهُ على الهرمِ

وقوله:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

وقوله:

ولو كان النساءُ كمن فقدنا
لفضلت النساءُ على الرجالِ
فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ
ولا التذكيرُ فخر للهلالِ

obeikandl.com

وقوله:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما قاته وفضول العيش أشغالُ

وقوله:

وقد أطالَ ثنائي طولُ لابسِه
إن الثناءَ على التنبالِ تنبالُ

وقوله:

إذا تغلغل فكر المرء في طَرَفٍ
من مجده غرقتْ فيه خواطرُه

وقوله:

تمنٍّ يلذ المستهام بذكره
وإن كان لا يغني فتيلاً ولا يجدي

وغيظ على الأيام كالنار في الحشا
ولكنه غيظ الأسير على القِدِّ

وقوله:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
إذا اتسعت في الحلم طُرْقُ المظالمِ

وأن ترد الماء الذي شطره دمٌ
فتُسقى إذا لم يُسْقَ من لم يُزاحِمِ

obeikandl.com

ومن عـرف الأيـام مـعـرفـتـي بهـا
وبالنـاس روّى رمـحـه غـيـرَ راحمِ

فـليس بمرحـــوم إذا ظَفِـــروا بـه
ولا في الردى الجاري عليهم بآثمِ

وقوله:

إن كـان قـد ملك القلوب فـإنه
ملك الزمـان بـأرضـه وسـمـائهِ

الشمس من حساده والنصر من
قـرنائه والسـيف من أسـمـائهِ

أين الثـلاثة من ثلاث خـلالـه
من حـسـنه وإبائه ومـضـائهِ

مـضت الدهور ومـا أتين بمثله
ولقـد أتى فـعـجـزن عن نظرائهِ

وقوله:

وأنا الذي اجـتلب المنيـةَ طرفُـه
فمن المطالب والقـتيل القاتلُ ؟!

وقوله:

قد كنت أشفق من دمعي على بصري
فـاليـوم كل عـزيـز بعـدكم هانا

وقوله:

وما شَرَقي بالماء إلا تذكّراً
لماء به أهل الحبيب نزولُ

وقوله:

المجدُ عوفي إذ عوفيت والكرمُ
وزال عنك إلى أعدائك الألمُ

وقوله:

وما أخصك في برءٍ بتهنئة
إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

وقوله:

هو البحر غص فيه إذا كان ساكناً
على الدر واحذره إذا كان مزبدا

فإني رأيتُ البحر يعثر بالفتى
وهذا الذي يأتي الفتى متعمّدا

تظل ملوك الأرض خاشعة له
تفارقه هلكى وتلقاه سجّدا

وقوله:

ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تعالى
هكذا هكذا وإلا فلا لا

obeikandl.com

شـــرف ينطـح النجـــوم بِرَوْقَـــيْ
ـهِ وعـــزٌّ يقلقل الأجـــبـــالا

وقوله:

تريدين لقيان المعالي رخيصة
ولابد دون الشهد من إبر النحلِ

وقوله:

ومـا صـبـابـة مـشـتـاق على أمل
من اللقـاء كـمـشـتـاق بلا أمل

وقوله:

خلقتُ أَلُوفا لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبي مُوجَع القلب باكياً

وقوله:

رمـــاني الدهر بالأرزاء حـــتى
فـــؤادي في غـــشـــاء من بنال

فـصـــرت إذا أصـابتني ســهـام
تكسـرت النصـال على النصـال

وقوله:

مَن يَهُن يَسْـهُل الهَـوانُ عليْـهِ
مـــــا لجُـــــرح بميـتٍ إيـلاَمُ

obeikandl.com

وقوله:

أفاضلُ الناسِ أعراضٌ لذا الزمن
يخلو من الهمِّ أخلاَهُم من الفِطَنِ

وقوله:

والهَمُّ يخْتَرِمُ الجسيمَ نحافةً
ويشيبُ ناصيةَ الصَّبي ويُهرِم

وقوله:

والظلمُ من شِيَم النفوس فإن تَجِدْ
ذا عِفةٍ فَلعلَّةٍ لا يظلِمُ

وقوله:

ومن البلية عَذْلُ من لا يرعوي
عن جهله وخطاب من لا يفهمُ

وقوله:

وكلُ شجاعةٍ في المرء تغنيْ
ولا مثلَ الشجاعةِ في الحكيمِ

وقوله:

وكمْ مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً
وآفتُه من الفَهْمِ السقيمِ

obeikandl.com

وقوله:

وإذا لـم يـكـن مـن المـوتِ بُـدٌ
فـمن العـجـزِ أن تكون جـبـانا

وقوله:

من كان فوق محل الشمس موضعُهُ
فليس يـرفـعُـهُ شيءٌ ولا يضعُ

وقوله:

لعل عـتـبك مـحـمـود عـواقـبـه
وربما صـحـت الأجـسـام بـالعللِ

وقوله:

وليس يصح في الأفـهـام شيء
إذا احـتـاج النـهـار إلى دليل

وقوله:

وإذا مـا خـلا الجـبـانُ بـأرضٍ
طلب الطعن وحـده والنـزالا

وقوله:

الرأي قبل شـجـاعـة الشـجـعـانِ
هـو أولٌ وهـي المحـل الثـانـي

وقوله:

ولـربما طَعَنَ الفـتـى أقـرانَه
بـالـرأي قـبـل تَطَاعُنِ الأقـرانِ

obeikandl.com

وقوله:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسانِ

وقوله:

إذا الجود لم يُرْزَق خلاصاً من الأذى
فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقياً

وقوله:

وللنفس أخلاق تدل على الفتى
أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

وقوله:

فما الحداثة من حلم بمانعةٍ
قد يُوجد الحلم في الشُّبانِ والشيبِ

وقوله:

إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُه
وصدَّق ما يعتاده من توهمِ

وقوله:

إنما تنجح المقالة في المر
ءِ إذا صادفت هوىً في الفؤادِ

obeikandl.com

وقوله:

وكل امرئ يولي الجميل محببٌ
وكل مكان ينبت العـــز طيبُ

وقوله:

غـيـــر أن الفـــتى يلاقي المنايا
كـــالحـــات ولا يلاقي الهـــوانا

وقوله:

ولم أرَ في عـيـوب الناس شـيـئـاً
كنقص القـادرين على التـمـام

وقوله:

وللســـر مني مـــوضع لا يناله
نديم ولا يفـضي إليـــه شـــراب

وقوله:

ومن جـــهلت نفـــسُـــه قـــدرَه
رأى غـــيـــرهُ منه مـــا لا يرى

وقوله:

ولم تـزل قلةُ الإنصـافِ قـاطعـةً
بين الـرجـال ولو كـانوا ذوي رحمِ

وقوله:

ذريني أنل مـا لا ينال من العُلى
فصعب العلى في الصعب والسهل في السهلِ

obeikandl.com

وقوله:

تمرستُ بالآفات حتى تركتها
تقول: أمات الموت أم ذعر الذعر

ولا تحسبن المجد زقّاً وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتركك في الدنيا دويّاً كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

وقوله:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقوله:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل
عما مضى فيها وما يتوقع

إلى غير ذلك من الأشعار والأبيات الجميلة التى لا يمل المرء من سماعها أو ترادها.

وهذا الشاعر هو الأول عندي وعند كثير ممن سبقنا من العلماء والأدباء، بل له السيادة في الشعر، وقد ألفت عنه كتاباً سميته: إمبراطور الشعراء، وقد طبق الخافقين ذكره وأخمل الشعراء شعره وصارت أبياته أشهر من الأمثال وأقتل من الآجال وأجمل من الآمال.

obeikandl.com

فهو في الأدب إمام، وفي الشعر كعبة ومقام، فعند ذكره لا امرؤ القيس ولا بحتري ولا أبو تمام، فهو شاعر الأيام، وقد شهدت بذلك الأقلام.

❀ ❀ ❀

obeikandl.com

مقتله

المتنبي واحد من الذين قتلتهم قصائدهم، ولعل من الملفت للنظر أنه لم يلق حتفه على يد كافور أو حاشيته ممن كانت تدين له أرض مصر، رغم ما سلطه المتنبي عليه من أهاج مدوِّية ترددت على الألسنة، إنما كان حتف هذا الشاعر البائس على يد رجلٍ من عامة الناس ثأر لقريب له سلقه المتنبي بلسانه، فانظر إلى المفارقة.

والقصيدة القاتلة هجا بها المتنبي رجلاً يُدعى (ضبة بن يزيد العيني)، فأفحش في القول وأقذع.

يقول المتنبي:

ما أنصف القومُ ضبّة
وأمَّه الطُرْطُبَّه[١]

فلا بمن مات فخرٌ
ولا بمن عاش رَغبهْ

وإنما قلتُ ما قلـ
ـلتُ رحمةً لا محبهْ

وحِيلةً لك حتى
عُذِرتَ لو كنت تِيْبهْ[٢]

(١) الطُرطبة: القصيرة الضخمة، المسترخية الثديين!
(٢) تيبه: أي تفطن. أي: قلت ذلك حيلة ليعذرك الناس.

obeikandl.com

وَمَـنْ يُبَـــــالِي بِـذَمٍّ
إِذَا تَعَـــوَّدَ كَـــسْـــبَـــهْ

أمَـا تَرَى الخَـيْلَ في النَّخـ
ـل سُـــرْبَةً بَعْـــدَ سُـــرْبَهْ

فَـــسَلْ فُـــؤادَكَ يَا ضَـــبـ
ـبَّ أيْنَ خَلَّفَ عُـجْـبَـهْ[١]

وَإِنْ يَخُنْكَ لَعَـــمْـــرِي
لَطَالَمَا خَـانَ صَـحْـبَـهْ[٢]

وَكَـــيْفَ تَرْغَبُ فِـــيـــه
وَقَـدْ تَبَـيَّنْتَ رُعْـبَـهْ[٣]

مَـــــا كُـنْـتَ إلاَّ ذُبَـابـاً
نَفَـــتْكَ عَنَّا مـــذبَّهْ[٤]

وَكُنْتَ تَفْـخَـرُ تِيـهـاً
فَـصـرْتَ تَضْـرِطُ رَهْبَـهْ

(١) ضب: ترخيم ضبَة، خلّفه: تركه خلفه، العجب: التيه والكبر.
(٢) عمري: قسم، وهو مبتدأ محذوف الخبر قام مقامه جوابه، الصحب: جماعة الأصحاب، أي إذا خانك قلبك وخذلك في شجاعة الإقدام علينا فهو متعوِّد أن يخون أصحابه.
(٣) ضمير فيه لفؤادك، أي هو لا نفع فيه ولا خير لك في اصطحابه.
(٤) المذبة: ما يطرد بها الذباب.

obeikandl.com

وَإِنْ بَعُـــدْنَا قَلِيـــلاً
حَـمَلْتَ رُمْـحـاً وَحَـرْبَهْ[١]

وَقُـلْـتَ: لَـيْـتَ بِـكَـفِّـي
عِنَانَ جَـرْدَاءَ شَطْبَـهْ[٢]

إِنْ أَوْحَـشَـتْكَ الْمَعَـالِي
فَـإِنَّـهَـا دَارُ غُـرْبَهْ

أَوْ آنَسَـتْكَ الْمَخَـازِي
فَـإِنَّـهَـا لَكَ نِسْـبَـهْ[٣]

وَإِنْ عَـرَفْتَ مُـرَادِي
تَكَشَّـفتْ عَنْكَ كُـرْبَهْ[٤]

وَإِنْ جَـهِلْتَ مُـرَادِي
فَـإِنَّهُ بِكَ أَشْـبَـهْ[٥]

هذا ما قاله المتنبي في (ضبة) المذكور، وهو كما نقل ابن العديم: «ما للمتنبي شعر أسخف من هذا الشعر ولا أوهى كلاماً، فكان على سخافته وركاكته سبب قتله وقتل ابنه وذهاب ماله».

(١) أي يعود إليك عجبك حال ابتعادنا عنك فتحمل سلاحك وتطلب المبارزة متحدياً.
(٢) العنان: سير اللجام، الجرداء: القصيرة الشعر، الشطبة: الطويلة.
(٣) المخازي: الأفعال القبيحة.
(٤) أي إذا عرفت مرادي زال عنك الكرب الناتج عن جهلك لما أقول.
(٥) أي إذا جهلت مرادي فالجهل أليق بحالك؛ لأنك لست من أصحاب الفهم.

obeikandi.com

لمّا سمع فاتك الأسدي (خال ضبة) بهذا الشعر داخلته الحمية لابن أخته (ضبة)، فقرر الثأر له بقتل المتنبي، ولندع الربعي يروي لنا قصة مقتل المتنبي عمن عاصر أحداثها: وهو محمد بن المبارك الجُبَّلي[١].

قال الجُبَّلي:

«وأمَّا ما سألتما عنه من خبر مقتل أبي الطيب ـ رحمه الله ـ، فأنا أَنْسُقُهُ لكما وأشرحه شرحاً بَيِّناً.

اعلما أنّ مَسيره كان من واسطٍ في يوم السبت لثلاث عَشْرةَ ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة، قُتِلَ بَبَيْزَع،[٢] ضَيْعَةٍ تَقْرُبُ من دير العاقول، في يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة. والذى تولَّى قتلَه وقتلَ ابنه وغلامه رجلٌ من بني أسَد يقال له «فاتك بن أبي الجهل بن فِراس بن بَداد». وكان من قوله لمّا قتله وهو مُنْعَفِرٌ: «قُبْحاً لهذه اللحية يا سَبَّاب!»، وذلك أنّ فاتكاً هذا قَرَابةٌ لوالدة «ضَبَّة بن يَزيد العَيْني» الذي هجاه المتنبي بقوله:

---

(١) انظر ترجمة المتنبي للربعي منشورة في خاتمة كتاب (المتنبي) للأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ (٥٨٥ ـ ٦٠٤).

(٢) في المخطوطة «بنيزع» بالنون، وهو كذلك في ديوان المتنبيّ (عزام) هامش ص:٥٨٧، ٥٨٨، غير أن ياقوتاً الحموي اقتصر على ذكرها في حرف الباء، نقلاً عن خط أبي بكر محمد بن هاشم الخالدي صاحب هذا الخبر.

مَـا أنْصَفَ القَـوْمُ ضَـبَّـهْ
وَأمَّـــــهْ الـطُّرْطُبَّـــــة

ويقال: إن «فاتكاً» خالُ «ضبَّةَ»، وإن الحميَّة داخلته لما سمع ذكْرَها بالقبيح في الشعر، وما للمتنبي شعرٌ أسخفَ من هذا الشعر ولا أوْهَى كلاماً، فكان على سخافته وركاكته سببَ قتْله وقتلِ ابنه وذَهابِ ماله.

وأمَّا شرحُ الخبر: فإن «فاتكاً» كان صديقاً لِي، وكان كما سُمِّي فاتكاً لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال، فلما سمع الشعرَ الذي هُجيَ به «ضَبَّةُ» أحفظه ذلك واشتدَّ عليه، ورَجَعَ على «ضَبَّةَ» باللوم، وقال له: قد كان يجبُ أن لا تجعلَ لشاعر عليك سبيلاً! وأضمر غيرَ ما أظهر، واتَّصل به خَبَرُ انصرافِ المتنبي من بلد فارسَ إلى العراق، وأنّ اجتيازه بجُبَّل ودير العاقول، فلم يكن ينزل عن فرسِه.

وجماعة من بني عَمِّه رأيُهم في المتنبي مثل رأيه في طلبه واستعلام خبره من كل صادر وواردٍ، وكان فاتك يتحرَّى خوفاً أن يفوته.

وكان كثيراً ما يجيئني وينزل عندي، فقلت له يوماً ـ وقد جاءني وهو يسأل قوماً مُجْتازين عنه ـ: قد أكثرت المَسْألةَ عن هذا الرجل، فأيُّ شيء عزمك أن تفعله متى لقيتَهُ؟

قال: ما عزمي إلا للجميل، وأنْ أعذُلَه على ما أفحش فيه من الهجاء.

فقلت له: هذا الأليقُ بأخلاقك والأشبهُ بأفعالك.

فتضاحك ثم قال: والله يا أبا نصر، لئن اكتحلت عيني به أوْ جمعتني وإيّاه بقعةٌ لأسفكنَّ دمه ولأمْحَقَنَّ حياته، إلا أن يُحال بيني وبينه.

فقلت له: كُفَّ ـ عافاكَ الله ـ عن هذا القول، وارجع إلى الله، وأزلْ هذا الرأي من قلبك، فإن الرجل شهير الاسم بعيدُ الصوت، وقَتْلُكَ إيَّاه في شعرٍ قاله لا يحسُن، وقد هجت الشعراءُ الملوكَ في الجاهلية والخلفاءَ في الإسلام، فما علمنا أن شاعراً قُتِلَ بهجاءٍ (وقد قال الشاعر):

هَجَوْتُ زُهَيْراً ثم إنِّي مَدَحْتُهُ
ومَا زَالَتِ الأشرافُ تُهْجى وتُمْدَحُ

ولم يبلغ جُرْمُهُ ما يوجب قَتْلَه!

فقال: يفعلُ الله ما يشاء! وانصرف.

فلم يمض لهذا القول إلاّ ثلاثة (أيَّام حتى وَافى) المتنبي ومعه بِغَالٌ مُوقَرَةٌ كُلَّ شيء من الذهب والفضة والثياب والطِّيب والجوهر والآلة؛ لأنه إذا (كان مسافراً لم يُخَلِّف) في منزله درهماً ولا ديناراً ولا ثوباً ولا شيئاً يُساوي درهماً واحداً فما فوقه، وكان أكثُر

إشْـفـاقـه على دفـاتره، (لأنـه كـان قـد انتـخـبـهـا) وأحكمـهـا قـراءةً وتصحيحاً.

قـال: فتلقَّيْتُهُ وأنـزلْتُه داري وسـاءَلْتُه عن أخبـاره؟ وعـمَّن لقـي؟ وكيـف وجـد مَنْ قَـصَـدَه؟ (فعـرَّفني) من ذلك مـا سُـررت به، وأقـبل يصف لي ابن العـميد وفضلَه وأدبَه وعلْمَه وكرمَه ، وسَماحة المَلِك أبي شجاع فنَّاخُسْرَوْ، ورغبَتَهُ في الأدب ومَيْلَه إلى أهله.

فلما أمسينا قلت له: على أي شيء أنت مُجْمِع؟

قال: على أن أتَّخذ الليل جملاً، فإن السير يخفُّ فيه عليَّ.

قلت: هذا هو الصواب ـ رَجَاء أن يُخْفِيَهُ الليلُ، ولا يصبحُ إلا وقد قطع بلداً بعيداً ـ والوَجْهُ أن يكون معك من رَجَّالَة هذه المدينة الذين يَخْبُرونَ الطريقَ ويعرفون المواضع المَخُوفة فيه، جَماعَةٌ يمشون بين يديك إلى بَغْداد.

فقطَّب وقال: ولم قلتَ هذا القول؟

قلت: تستأنس بهم.

قال: أمَّا والجُرازُ في عنقي فما بي حاجة إلى مُؤنسٍ غيره.

قلت: الأمر كما تقول، والرأي فيما أشرتُ به عليك.

فـقـال: تلويحك هذا يُنْبِي عن تعريض، وتعريضك يُخْبِر عن تصريح، فعرِّفني الأمَر وبيِّن لي الخَطْب.

قلت: إن هذا الجاهل «فاتكاً الأسديّ» كان عندي منذ ثلاثة أيام، وهو مُحْفَظٌ عليك لأنك هجوت ابنَ أخْتِه، وقد تكلَّم بأشياءَ توجب الاحتراس والتيقُّظ، ومعه أيضاً نحو العشرين فارساً من بني عمّه قَوْلُهُمْ مِثْلُ قَوْله ـ قال: وغلامه كان عاقلاً لبيباً فارساً يسمع كلامنا ـ فقال: الصوابُ ما رآه أبو نصر، خُذْ معك عشرين راجلاً يسيرون بين يديك إلى بغدادَ.

فاغتاظ غيظاً شديداً وشتم الغلامَ شتماً قبيحاً، وقال: والله لا تُحُدِّث عني أني سِرْتُ في خفارةِ غير سيفي.

فقلت له: يا هذا، فأنا أوَجِّهُ قوماً من قِبَلي في حاجة يسيرون بمسيرك ويكونون في خُفارتك.

قال: والله لا فعلتَ شيئاً من هذا. وقال لي: يا أبا نصر، أبخُروءِ الطير تُخَشَّيني، ومن عَبيد العصا تخاف عَليّ..! والله لو أن مِخْصَرَتي ملقاةٌ على شاطئ الفرات وبنو أسَد مُعْطِشون لخَمس، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيَّات، ما جَسرَ لهم خُفٌّ ولا ظِلْفٌ أن يَرِدَهُ..! حاشَ لله من فكر أشْغَلُه بِهِمْ لحظةَ العَيْن.

فقلت له: قل إن شاء الله.

فقال: كلمة مَقُولةٌ لا تَدْفع مقضيّاً ولا تستجلب آتياً! ثم ركب فكان آخر العهد به.

قال: «ولما صح عندي خبر قتله وجهت من دفنه وابنه وغلامه، وذهبت دماؤهم هدَرَاً» أهـ.

ويقال[١]: بأن المتنبي لما خرج عليه فاتك ورجاله أراد أن ينهزم، فقاله له ابنه: يا أبهْ:

وأين قولك:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والطعن والضرب والقرطاس والقلمُ؟

فقال له: قتلتني يا ابن اللخناء!

ثم قاتل حتى قُتل.

فقيل: بأن هذا البيت هو الذي قتله.

وبعد: فقد قتل المتنبي لكن لم يقتل إبداعه وحكمته، وذبح أبو الطيب ولم تذبح عبقريته، لقد بقي معنا حيّاً بشعره ونبوغه وأمثاله وشوارده، ولكن العبرة من قتله أن على العاقل أن يحاسب لفظه ويراقب ربَّه، فبئس بشعر يقطع رأس صاحبه ويسيل دم قائله، أين بُعد النظر وتقليب عين البصيرة قبل الهذيان والثرثرة وإطلاق القول على عواهنه، وهذا المتنبي خسر نفسه من أجل أبيات زهيدة، فكيف بعذاب الله لمن أساء الأدب معه، وسب رسله وتعرض لأوليائه، إن أخسر الناس صفقة من باع دينه بدنياه، فأرسل لسانه بالإفك الأثيم، وهؤلاء ملوك الدنيا الفانية يغضبون

(١) انظر ترجمة المتنبي للربعي منشورة في خاتمة كتاب (المتنبي) للأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ (٦٥١).

obeikandl.com

لملكهم، ولله المثل الأعلى وهو ملك الملوك وهو الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فويل لمن عصى ربه وحارب مولاه، وقدح في شرحه وسب رسله وشهد شهادة الزور ﴿ **سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** ﴾.

وقبل أن أودعك أيها القارئ أذكر لك قطعة أدبية عن المتنبي من كتابي إمبراطور الشعراء.

قلت: «ما رأيت عالماً فذاً جاء بعد المتنبئ إلا استشهد بشعره في معرض حديثه، من موعظة وتفسير، أو سلوك، أو تربية، أو تاريخ، وقد مسحت كتباً كثيرة شهيرة فإذا للمتنبئ عشرات الأبيات منثورة في غضون هذه المجلدات، مثل إحياء علوم الدين للغزالي فله عنده قرابة عشرين بيتاً، وابن الجوزي مغرم في كتبه بالمتنبئ، وابن حزم مولع بشواهده، وابن تيمية يهش لنوادره، ويورد بدائعه، وابن القيم ينتقي مقطوعات ثمينة في كتبه، وعلماء التراجم يوشحون السير بشعره، والمؤرخون تسعفهم أبياته عند العرض والاستنتاج، والوعاظ يهزون الناس بقوافيه، والملوك يديرون أدبه في مجالسهم، والأدباء يضمنون نتاجهم فيض المتنبئ، والكتاب يزينون مقالاتهم بتحفه الغالية. وبالجملة فلا أعلم شاعراً عربياً قديماً أو حديثاً شرق وغرب شعره، وخلد نتاجه كهذا الشاعر، شهادة يؤديها الأدباء، ويقوم بها الشعراء، ويصدقها أرباب البيان، وكأن المتنبئ يعني هذا لما قال في شعره:

إذا قلتـه لم يمتنع من وصـوله

جـدار مـعلّى أو خـبـاء مطـنّب

وقصدي من هذا الفصل إخبارك أن الشاعر الفذ هو من بقي حضوره، ودام ذيوعه، وفرض احترامه على محبيه، ووجوده على حاسديه، وكذلك كان المتنبئ، فهو أشهر شاعر سمع به الناس، واحتفلت بشعره المنابر، وهضمت جمله الدفاتر، وتشنفت بقوافيه الآذان، ولعلعت بقصائده المجالس ليصح في شعره قوله:

أنا الذي نظر الأعـمى إلى أدبي

وأسـمعت كلماتي من به صمم[1]

❀ ❀ ❀

(١) إمبراطور الشعراء، ص٦٣ .

obeikandl.com